دراسة تاريخية
لمناهج تعليم القرآن الكريم بين الماضي والحاضر
(مجتمع وادي سوف نموذجا)

بقلم
أ/ علي غنابزية
أستاذ مساعد مكلف بالدروس بقسم التاريخ
المركز الجامعي بالوادي

الملخص :

يدرس هذا الموضوع وسائل وطرق التعليم القرآني المتشابهة في كامل أنحاء الجزائر، مع أخذ منطقة وادي سوف نموذجا للبحث عن تطور المناهج التي سلكها القدامى في نشر القرآن على أوسع نطاق، ويرصد كيف كان الانتشار محدودا في العصور المتأخرة رغم تطور المناهج العلمية وتوفر الإمكانيات المادية والبشرية . ويكشف أن النجاح في هذا التعليم مرتبط بتعاون المجتمع، وخصوصا أطراف العملية التعليمية (المعلم، والتلميذ، والأولياء).

Résumé

Ce thème étudie les moyens et les modes d'enseignement Coranique semblables dans tous les région de l'Algérie.

On a précis Oued-Souf comme exemple pour étudier le développement des méthodes qui étaient utilisées par nos encetres dans la diffusion du Coran sur une grande échelle.

Ce thème étudie aussi les limites de cette diffusion dans la dernière époque malgré le développement des méthodes scientifiques et l'existence des ressources matérielles et humaines.

Enfin, il montre que la réussite des méthodes d'apprentissage est conditionnée par une complémentarité de toute la société surtout ceux de (l'enseignant, l'enseigné, et la famille.?

مقدمة:

لما شرع نور الإسلام في شمال إفريقيا خلال القرن الأول الهجري، شرع قادة الفتح وولاة الأمر في بث أحكام الإسلام ونشر قيم الدين في المجتمع، وكان القرآن الكريم هو المادة الأساسية التي ارتكز عليها التعليم يومئذ، لأن القرآن

هو الروح التي تسري في كيان الأفراد والجماعات، فيرسخ الإيمان، وتمتن أواصر العقيدة، ويربط المسلم بالرسالة الخالدة، لأن تعليم القرآن أولوية عند المسلم، و حفظ ما تيسر منه واجب شرعي حتى يسهل عليه إقامة الصلاة. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ومن هذا المنطلق انتشر التعليم في البلاد، وكان متوازيا مع تعليم السكان أحكام الدين، وفق عدة مظاهر ووسائل :

1) إرسال العلماء والفقهاء لتعليم أحكام الدين وتحفيظ القرآن الكريم، وقد ثبت تاريخيا أن عقبة بن نافع ﷺ (49. 62 هـ)، خصص رجالا من أصحابه . ومنهم شاكر وغيره . لتعليم القرآن، وفعل مثله موسى بن نصير(86 ـ 95 هـ) فقد ترك عند بربر طنجة سبعة عشر، وقيل سبعة وعشرون رجلا، أو الفا من العرب لتعليمهم القرآن والفقه في الدين.[1] وإن صاحب الفضل الكبير على سكان المغرب العربي هو عمر بن عبد العزيز، حينما أرسل إسماعيل بن عبد الله (99 .101 هـ) واليا على المغرب، وأرسل معه عشرة من التابعين كانت مهمتهم تعليم القرآن ونشر مبادئ الدين[2].

2) بناء المساجد التي كانت أهم المراكز العلمية في البلاد الإسلامية، وتم في رحابها تحفيظ القرآن وتعليم أحكام الدين. وأولها مسجد عقبة بالقيروان، ومسجدي تلمسان وأغمات التي أسست من طرف موسى بن نصير، وأسس إسماعيل بن عبد الله والفقهاء المرافقون له المساجد التالية: مسجد الرباطي، وجامع الزيتونة [3].

وكانت تلك المساجد هي الكتاتيب القرآنية التي قامت في وقت مبكر، فقد ذكر الدباغ في معالم الإيمان عن غياث بن شبيب قال: « كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه» [4]، وقد دخل سفيان بن وهب إلى افريقية سنة 78هـ، مما يجعل تاريخ انتشار التعليم القرآني قبل هذا التاريخ مع رسوخه عند أهل البلاد.

وتتشابه وسائل وطرق التعليم القرآني عبر كامل أنحاء الجزائر، ولكن إشكالية البحث تفرض تتبع المناهج التي سلكها القدامى، وكان لها تأثيرها الفعال في نشر القرآن على أوسع نطاق، بينما كان الانتشار محدودا في

العصور المتأخرة رغم تطور المناهج العلمية وتوفر الإمكانيات المادية والبشرية، ويخضع ذلك لظروف متعددة.

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم ارتبط تاريخيا بأحوال البشر أثناء نزوله، وبقي مرتبطا بسلوك الناس في مختلف العصور الإسلامية، وصار لكل بلد أو مجتمع كيفية خاصة في التعامل مع الكتاب الكريم، حفظا (تعلما) أو تلاوة (تعبدا)، أو من خلال ارتباطه بالعبادة (الصلاة)، أو عادات الناس وتقاليدهم وسلوكهم اليومي. ويمثل التعليم القرآني في مجتمع وادي سوف نموذجا للدراسة منذ القرن 17 الهجري، وهو جانب مهم من التاريخ العام للقرآن الكريم عبر العصور القديمة والحديثة.

أولا: أهمية التعليم القرآني في مجتمع وادي سوف:

بدأ الاهتمام بالتعليم القرآني في مجتمع وادي سوف منذ دخول الإسلام إلى المنطقة، إذ كانت الرغبة شديدة في الحفظ، لأن المكسب هو إرضاء الله والتقرب إليه بالآيات الكريمة. ويمكن تتبع سير العملية تاريخيا منذ القرن 17 م كما يلي:

1) التعليم القرآني التلقيني: ويقوم به رجال التصوف، ويدعى أحدهم بالولي أو (المرابط)، مثل الشيخ العارف بالله " أحمد بن عبد الله اللجي" الذي عاش في القرن 17م، والشيخ عباس الغريب بقرية" جلهمة" قرب تاغزوت، وكان يعلم القرآن للكبار في منزلهم وهو على شكل زريبة ويدعى " العريش "[5].

2) مساهمة الدعاة من خارج سوف. وخصوصا بلاد الجريد التونسية. في دفع عجلة التعليم، مثلما فعل الشيخ " سيدي المسعود الشابي" وابنه "علي الشابي" وغيرهم من الدعاة فيما بعد. فضلا عن إرسال الطلبة إلى بلاد الجريد (توزر ونفطة) على شكل بعثات لإتقان الحفظ في زاوية " سيدي المولدي بوعرقية" بتوزر[6]، أو مسجد " الفركوس" قبل التوجه للدراسة بجامع الزيتونة المعمور.

3) بناء المساجد في القرى النائية مباشرة بعد استقرار الفلاحين بالقرب من الغواطين (أي مزارع النخيل)، وأول مؤسسة يفكرون في تأسيسها هي المسجد الذي يتعلم فيه الصغار، ويتعبد فيه الكبار.

4) تأسيس المدارس القرآنية التابعة للعائلات والعروش، وازدهرت في أواخر القرن 19م وخلال القرن 20م في مدينة الوادي وضواحيها. مثل مدرسة القروي بحي لعشاش 1890 [7]، ومدرسة سعدودي بحي المصاعبة في حدود 1901[8]، ومدرسة أجبيرات 1904 بحي لعشاش. وحتى المدارس التي كان محورها الإصلاح مثل مدرسة أولاد أحمد بالوادي 1920 [9]، أو مدرسة النجاح بقمار في أواخر الثلاثينيات، وكان العنوان البارز والشعار الظاهر هو تعليم القرآن، لأن الاستعمار يريده أن يُدَرَّس مجردا عن التفسير والشرح حتى لا يساهم في بث الوعي في نفوس الناشئة، وعندما يحس بذلك الوعي يضيق على المعلم أو يوقف نشاط المدرسة مثلما حدث للمعلم " الشيخ العربي صالحي" في سيدي عون، والذي غادر المنطقة نحو تونس.

5) الاهتمام منذ الاستقلال بالتعليم في المدارس القرآنية التابعة للمساجد، ولكن أثرها كان محدودا مقارنة بالعهود القديمة، مما دفع بعض الغيورين إلى التطوع في المساجد، وأثمر ذلك نبتا حسنا، والذي توج مؤخرا بتأسيس مدارس حرة صار لها الأثر الفعال في تخريج الحفاظ بإتقان كبير.

ولا يوجد طفل في المجتمع . قديما . يتخلف عن القرآن، لأن في تعلمه شرف كبير للعائلة التي يكون فيها " طالبا " أي حافظا للقرآن ،ويحصل لهم الشرف في ليالي رمضان المبارك عندما يقدم ابنهم لصلاة التراويح ، وهذه الرغبة جعلت العادات والتقاليد تتفاعل مع حياة الصبي، فنجدهم يتفاءلون بمولده وخاصة الذكر فيدْعُونَ لبعضهم قائلين: « **الله يَجعَلَهْ من حفاظين القرآن** »، وعندما يختن الصبي يحتفظ " بالقلفة " فتدفن في زاوية برحاب المسجد تفاؤلا بالقرآن حتى ينشأ الطفل بالمسجد ويتربى على مائدة القرآن. بل يستمر الاهتمام بعد وفاة الصبي، فيحمل أهله " **لفتوح**" ويدخلوه إلى " **الجامع** "، وفي اعتقادهم أن الصبي يتعلم عند الخليل إبراهيم عليه السلام، ولهذا الاعتقاد سنده الشرعي، مثلما ورد في الآثار مما خرجه **البخاري** من حديث الرؤيا عن سمرة وفيه: أن النبي ﷺ رأى في الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس. وقال القرطبي في التفسير: " ألا ترى أن إبراهيم تفسيره أب راحم؛ لرحمته بالأطفال؛ ولذلك جُعل هو وسارة زوجته كافلين لأطفال المؤمنين يموتون صغارا إلى يوم القيامة .

ثانيا: وضعية المعلم والتلميذ في المدرسة القرآنية القديمة (الجامع):

1) **المعلم:** أو مؤدب الصبيان ويدعى " الطالب " لأنه يطلب الأجر من الله ويطلب العلم ثم يصير معلمًا، أو يسمى" **نعم سيدي** " وهي كلمة نشأت بسبب احترام الصبيان للمعلم فيقولون عندما يأمرهم بشيء (نعم سيدي)، ولما تَكَرَّرَ الاستعمال تطور اللفظ إلى مصطلح ينعت به المعلم من جميع الناس، صغارا وكبارا؛ وفي أغلب الأحيان يكون الطالب رجلا متطوعا أو شبه متطوع، يختاره أهل الجهة لصلاحه وحفظه الجيد للقرآن الكريم، فيتولى شؤون المسجد فيصلي بالجماعة إماما، ويعلم الصبيان القرآن، ويعمل في بقية وقته بالفلاحة أو التجارة، وإذا كان الطالب متفرغا للتعليم يكون مورد رزقه ما يحمله إليه الأطفال أو آباؤهم من هدايا ومساعدات عند مناسبات كثيرة ربطت بالتعليم ومراحله وهي:

- **الفتوح:** وهو شيء من التمر أو الطعام الذي يحمل إلى الكُتّاب في أول دخول الصبي، وكلما تحصل على شيء من القرآن الكريم يأتي **"بالختمة "** وهي من الطعام غالبا وتقدم عند بلوغ الطفل لبعض السور المتعارف عليها وهي سورة الإخلاص، والبينة، والأعلى، والنبأ، وسورة الجن، والملك، والجمعة، والمجادلة، والرحمان، والفتح، ويس، والسجدة، والفرقان، ومريم، ويوسف، والأعراف، والبقرة.

- **الحضور:** كما يحمل الأطفال لمعلمهم كل يوم ثلاثاء بعض الأعواد من الحطب " الحضور " أثناء الشتاء من اجل تجفيف الألواح بعد محوها، أو تدفئة مكان الحفظ، أو يحملها المعلم إلى بيته.

- **لربعية:** وهي مقدار من المال يدفعه الطفل المتعلم كل يوم أربعاء ويدعى " الاربعية " ويختلف مقدارها حسب المستوى الاجتماعي، ويتغير المقدار مع ارتفاع المستوى المعيشي.

- **لعبار واللحمة:** وهو شيء من القمح واللحم يقدمها الأولياء للطالب في المواسم والأعياد الدينية، في عيد رجب أو شعبان أو القدري أو عاشوراء أو المولد النبوي الشريف.

- **هدايا العيد:** وهي تقدم في العيد الصغير" عيد الفطر " فيمنح المعلم بعض الألبسة، ويضاف إليها في العيد الكبير" عيد الأضحى " مجموعة من

الكسوة وقندورة وشاش[10] وكبش العيد (لأن الإمام هو قدوتهم في الصلاة وفي ذبح الأضحية) .

ـ **هدايا الخريف:** وفي فصل الخريف يقدم الصبيان لمعلمهم شيئا من التمر بعد قطع الغلة، وهذا يخص العائلات الميسورة فقط.

ـ **أجرة المعلم**: وهي أجرة شهرية من المال تخصص من الأسر الميسورة الحال لمعلم أطفالهم، أو هي أجرة صارت معتمدة من طرف جماعة المسجد، تجمع كل شهر وتقدم للمعلم وخصوصا في النصف الثاني من القرن العشرين.

والمعلم ذو مكانة في المجتمع عند تلاميذه، فلا يستطيع أحدهم أن ينظر في وجهه هيبة منه واحتراما للقرآن الذي يحمله في صدره، وعندما يراه أحدهم في الشارع مقبلا يتحاشى مقابلته من شدة الحياء والخوف والمهابة التي أعطيت له من المجتمع، وإذا تهاون التلميذ في حفظ لوحه أو صدر منه تصرف سيء، يكون جزاؤه الجلد " بالفلاقة "على رجليه، وهذا جعل الأطفال يخافون منه أكثر من آبائهم.

2) **التلميذ:** أقبل أهل سوف على تعليم أبنائهم القرآن الكريم بشغف ولهفة، ومحبة وحرقة، فإذا ظهرت علامات الإدراك، وملامح الاستعداد عند الصبي يدخله والده إلى" كتاب الحي" أو " المدرسة القرآنية" في الجامع القريب أو الزاوية التي تنتمي إليها العائلة، ويرى بعض الناس أن أفضل مرحلة من العمر للدخول هي عند بلوغه سن 5 سنوات، و5 أشهر، و5 أيام. ويستغرق في المدرسة مدة تتراوح ما بين 5 إلى 8 سنوات يتمكن خلالها من حفظ القرآن حفظا جيدا، وهذا جعل أعداد الحفاظ مرتفعا في تلك الأيام، وهذا ما أكده الشيخ حمزة بوكوشة بقوله: " ... والكلمة هي كيف كنا نتعلم القراءة والكتابة ونحفظ القرآن ونتعلم العلم حتى لا تكاد تجد بسوف أميا لأن التعليم منتشر فيها انتشارا غريبا بفضل المؤدبين وبعض الزوايا ."[11] كما عبرت على ذلك الكاتبة الفرنسية "سيللي ميللي " بقولها:"...وليس غريبا أن نجد واحدا من عشرة يحفظ القرآن كله بينما في باقي إفريقيا الشمالية فإن هذه المعرفة خاصة بالطلبة وبعض الخواص بنسبة 1000/1 ..."[12]

وكل طفل ينتمي لهذه المدرسة لابد له من أدوات يستعملها في تعلمه وهي:

- **اللوح**: ويكون من الخشب [13] وأحسنه الذي يتخذ من شجر الزيتون المستورد من تونس، وهو أهم الأدوات لأن الكتابة والقراءة تتم في سطحه الأملس الذي يرافق التلميذ خلال فترة الدراسة بأكملها.

- **الطين**: وهو المادة التي يُمْحَى بها حِبْرُ اللوح(الصمغ) بعد حفظ ما فيه من القرآن، ويصير فارغا من الكتابة بعد جفافه ليكتب فيه الجزء الموالي من القرآن.

- **الدواة والقلم**: وهي محبرة من مادة سوداء اللون تدعى " الصمغ " الذي يستورد ويحرق ويوضع في دواة ومعه شيء من الصوف والماء حتى يصير حبرا صالحا للكتابة. ويكتب اللوح بواسطة قلم من القصب [14] الذي يسن من طرف التلميذ إذا كان مدركا أو يساعده في ذلك أحد الكبار.

- **المصحف**: وهو نسخة من القرآن الكريم، يراجع فيها التلميذ ما حفظه، وكانت مخطوطة في القديم، ولما ازدهرت حركة الطباعة في الأزمنة المتأخرة صارت النسخ المطبوعة في متناول الجميع.

- **المخلاة**: وهي محفظة صغيرة من الصوف أو الكتان، يضع فيها التلميذ الأدوات السابقة الذكر، وكلما حافظ عليها الأطفال دل ذلك على اهتمامهم بالحفظ وانضباطهم في دراستهم. بينما يُعيَّر المتهاون بقولهم في المثل المتداول في هذا المضمار: " لا قلم ولا دوايه ولاو امعمل عالقرايه."

ولا يوجد في هذه المؤسسات التقليدية أي أثاث أو تجهيزات، وإنما الجميع يجلس على الرمل أو فوق فراش بسيط (حصير) محدود الانتشار أثناء فصل الشتاء.

ثالثا: أعمال ومواقيت الدراسة اليومية في العهد القديم:

تفتح المدرسة القرآنية أبوابها مبكرا، وتستقبل طلبتها مع طلوع الفجر، فيكون القرآن هو فطور الصباح، وتم اختيار هذا الوقت لبركته، وتيمنا بالقرآن الكريم، الذي جعل له الفضل الكبير في الوقت: ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: 78]. وقول النبي ﷺ « اللهم بارك لأمتي في بكورها » [رواه أبو داود].

وكان بعض التلاميذ يشربون ما يتقاطر من ماء ممزوج بالصمغ والطين بعد محي الألواح، وهم يتوسمون في ذلك بركة الحفظ، أو يمص أحدهم القلم بعد كتابة لوحه حتى يكسب التوفيق في حفظ الآيات الكريمة، بل كان بعض المعلمين ينصح التلاميذ بأن يكون أول كلامهم عند استيقاظهم من النوم، أن يردد ثلاث مرات النشيد التالي ليكون الله في عونه:

كلام قديم لا يُملُّ سماعه ❖ تنزهوا عن قولي وفعلي ونيتي
به أشتفي من كل داء ونوره ❖ دليل للقلب عن جهلي وحيرتي
فيا رب متعني بسر حروفه ❖ ونَوِّر به قلبي وسمعي ومقلتي
وسهل علي حفظه ثم درسه ❖ بجاه النبي والآل ثم الصحابة
عليه صلاة الله ما هبت الصبا ❖ وعن آله الأخيار أزكى تحيتي
صلاتك ربي والسلام على النبي ❖ صلاة لها ريح من المسك أطيب

وأول عمل يبدأ به الطلبة هو كتابة ألواحهم، وبعد تصحيحها من طرف المعلم يشرعون في قراءتها وتلاوتها عشرات المرات بأصوات مسموعة تشكل سنفونية عذبة الألحان، تحول الجامع إلى أصوات تشبه دوي النحل، فتحل البركات وتتنزل الملائكة بالرحمات والخيرات، ويستمر الحفظ في الفترة الصباحية إلى منتصف الضحى (حوالي الساعة العاشرة) وبعد أخذ قسط من الراحة في البيوت، يعودون في وقت الظهيرة لتبدأ الفترة المسائية وتستمر في مرحلتها الأولى إلى وقت صلاة العصر، وتستأنف بعدها إلى وقت اصفرار الشمس، ثم يتم استعراض الألواح، وبعد حفظها تمحى . الألواح . لتكون جاهزة في اليوم الموالي، بينما يؤجل إلى الصباح كل تلميذ عجز عن استعراض نصيبه حتى يحفظ الآيات في اليوم الثاني، لكن تنالُه العقوبة في حال تهاونه.

وهم يدرسون يوميا ما عدا مساء الأربعاء ويوم الخميس بأكمله وصباح الجمعة، وفي مسائه يستأنفون الدراسة[15] أما العطل فلا تكون إلا أيام الأعياد[16]. وخاصة في عيدي الفطر والأضحى، الذي يحتفل فيهما طلبة القرآن برسم " **خط العيد** " وزخرفته بأشكال فنية وتلوينه،[17] بحجارة تلتقط من الأرض تسمى "المغرة" وهي حمراء مشوبة بصفرة، فتحرق وتخلط مع الخل ويزين بها الأطفال ألواحهم.[18] وحينئذ يقول الأطفال مرددين " **خط العيد**

يا جديد يا حنان يا منان الله يفتح علينا القرآن "، وفي أيام خط العيد وهي 12 يوما قبل العيد، وستة أيام بعده يرفع اللوح فلا يكتب فيه أي شيء، وتخصص تلك الأيام للتكرار فقط.[19]

رابعا: مناهج وطرق التعليم القرآني (العهد القديم):

يخضع التعليم في المساجد والزوايا والمدارس القرآنية في المجتمع السوفي إلى الطرق والمناهج التقليدية، التي تعتمد أسلوب التلقين، والتكرار، والتدرج مع التلاميذ من البسيط إلى المعقد، ومن السهل إلى الصعب، ومن المجمل إلى المركب، مع مراعاة قدرات التلميذ، دون الاهتمام بفهم المعاني، لأن المقصود هو الحفظ فقط.

ولكن ضمن هذه المناهج تبرز الطرق التربوية الحديثة التي تعتمد على التمثيل بالشكل والصورة مع ضرب الأمثلة انطلاقا من البيئة والوسط الذي يعيشه التلميذ الصغير، والتدريب على إتقان الخط والكتابة، والتمرس في فقه الرسم القرآني بكل حيثياته، ويقسم الطلبة إلى مستويين هما:

ـ **المستوى الأدنى**: ويضم التلاميذ في المرحلة الأولى ويتم تلقينهم" الحروف" العربية ، ويشرف عليهم المعلم بنفسه أو يختار لهم عريفا (مساعدا) من تلاميذه النجباء، ويتدرج بهم بتأني كبير، وصبر طويل كما يلي:

1) تحفيظهم الأحرف الهجائية: وتدعى (أليف) نسبة إلى أول حرف (الألف)، فيحفظوها حرفا حرفا، مع احترام الترتيب ، وحتى يتمكن هؤلاء الصغار من التمييز بين هذه الحروف، يربطها لهم المعلم بصور وأشكال توافق الوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه، وهي طريقة تشبه الصور التي توضع في الكتب المدرسية العصرية، فيشبِّه لهم حرف الألف بالعصا، والباء بالسن الصغيرة، والدال التي تكتب بطريقة ملتوية إلى أعلى وأسفل بالجناحين، والهاء التي بها حلقتين يشبهها لهم بالبطنين، فيقول هكذا " أليف عصا . با اسنينه . تا اسنينه . جيم امعرق . دلْ بوجنحين . ها بوكرشين ...الخ "

2) لفت الانتباه إلى تنقيط الحروف: وبعد التعرف على شكل الحرف يلفت انتباههم إلى النقط التي توجد فوق الحرف أو أسفل منه، أو الإشارة إلى انعدام النقط تماما وتسمى هذه المرحلة باسم " أليف لا شي عليها" فيقولون:

" ألبف لاشي أعليها، والبا واحده ماسْفل (أي نقطة واحدة من أسفل) والتا اثنين من فوق، والحا لاشي عليها ... وهكذا حتى يصل إلى آخرها .. فيقول واليا اثنين ماسفل والهمزه فوق السطر وبالله التوفيق العزيز الرفيق.."

3) تعليم الحركات على الحروف: على أربعة مراحل:

أولها الفتحة وتسمى " النصبة " وتدعى " آنصب" فيقولون: " آنصب، بانصب ،تانصب ، جانصب ..."

وثانيها الضمة وتسمى "الرفعة " وتدعى أورفع، فيقولون: " أُورفع، بُورفع، تُورفع، جُورفع...."

وثالثها هي الكسرة وتسمى " الخفضة " وتدعى إِ خفض ، فيقولون: "إِخفض، بِيخفض، تِيخفض، كِيضفض..."

ورابعها هي السكون وتسمى " الوقفة " وتدعى " آ قفْ " ،فيقولون: " آَقف، أَبقف، أَتقف،أَدقف..."

وخامسها : تجمع كلها مرة واحدة ويقرا كل حرف بالحركات الأربع، فيقولون: " أليف بالنصب أَ ،بالرفعه أُ بالخفضة إِ، بالوقفة أْ...." و " العين بالنصبه عَ، بالرفعه عُ، بالخفضه عِ، بالوقفه عْ. "

وبعد تعلم الصبي الأحرف الهجائية يربطها له بعض المعلمين بنماذج من الحكم أو الأحاديث النبوية الشريفة أو الأحكام الشرعية والتي تختار وفق الحرف الهجائي الأول، مثلما فعل الطالب " الشيخ علي بالَمْ القماري" في الثلاثينيات في مسجد بيت الشريعة، فقال لهم مثلا :

حرف أليف: **التقى رأس كل حكمة**.(وهي إحدى الحكم، ويوجد حرف الألف في بداية كلمة التقى) .

حرف الخاء: **خياركم من تعلم القرآن وعلمه**. (وهو حديث شريف رواه **البخاري** عن عثمان بن عفان رضي الله عنه).

حرف الزي: زُرْ غبا تزدد حبا.(وهو مثل عربي قديم، وفيه حكمة تربوية جليلة) .

حرف الطاد: **طلب العلم واجب على كل مكلف**.(وهو حكم تعلم الضروري من أحكام الدين) .

حرف اللام أليف: **لعن الله اليهود والنصارى**.(وهو إبراز مسألة الولاء والبراء وخاصة في وقت الاستعمار)

وكان المعلم يؤكد على حفظ تلك المعاني ومن يتهاون يجلد بالعصا.[20]

وبعد إتقان الأحرف الأبجدية، يبدأ في تعليمه **سورة الفاتحة**، وما يليها من قصار السور حتى يتعود على القراءة ويتدرب على الكتابة، وحينئذ ينتقل إلى المستوى الأعلى .

. **المستوى الأعلى**: وهو يضم التلاميذ الكبار عموما، والذين يتجمعون في الصباح الباكر على شكل حلقة يتصدرها المعلم في هيبته ووقاره، ويسود الطلبة الحياء الجم والطاعة المطلقة، والاستعداد الكبير لتلقي الأوامر وتنفيذها بدون مناقشة أو تردد، وكلهم يمتثل للأمر ولسان نفسه يردد " **نعم سيدي** " .

ويبدأ الشيخ في الإملاء على الجميع من اليمين بالتدرج والترتيب . رغم اختلاف مستويات السور . فيكتفي التلميذ فقط بذكر رأس اللوح(وهو بداية الآية التي ختم بها اللوح السابق واصطلح عليها لتكون بداية للوح الجديد).

فيقول الأول مثلا، نعم سيدي ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ... ﴾ فيمل عليه المعلم الشطر الموالي ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [سورة الزمر:74] .

ويقول الثاني: نعم سيدي ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... ﴾ فيكمل له المعلم قائلا : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [سورة النور: 35].

ويقول الثالث: نعم سيدي ﴿ ... حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ... ﴾ فيقول المعلم ﴿ ..أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ ﴾ [سورة البقرة:214].

وهكذا يستمر المعلم في تلقين وإملاء الآيات، ويظهر ذلك في تناسق عجيب، وروح صادقة، وتفاني كبير. وعند الإتمام يقرأ كل واحد اللوح على المعلم فيصحح له أخطاء النطق، وأخطاء الكتابة، ثم تبدأ عملية الحفظ صباحا ومساء، كل تلميذ يقرأ بشكل مسموع ، فيشكلون دويا يشبه دوي النحل يُسمع من مسافات بعيدة. أما عملية الاستظهار أمام المعلم فتتم في المساء، وكل طالب حفظ اللوح يسمح له قبل الخروج (بمحيهِ)، حتى يكون جاهزا لليوم الموالي.

وعند تقدم التلميذ في الحفظ ، يعلمه بعض أحكام المتشابهات من المنظومات المشهورة، وهي كتب مخطوطة منها: الدنفاسي والمصباح والمحمولي .

. طرق المراجعة:

وتتعدد طرق المراجعة في هذه المرحلة التاريخية، وقد تنوعت ومنها:

- المراجعة الفردية: ويقوم بها كل طفل في البيت أو الجامع.
- المراجعة على مسمع المعلم: ويدعى التكرار، وهو نوع من الاستظهار، يقوم به التلميذ مع معلمه وخاصة عندما يعين للصلاة بالجماعة، صلاة التراويح.
- المراجعة الجماعية: وتكون تحت إشراف المعلم في وقت مبكر، أو ما بين المغرب والعشاء.
- الحزب الراتب : و يتم في المساجد ويختم القرآن تكرارا خلال الشهر القمري.

ويعود انتشار القرآن الكريم حفظا واتقانا في وادي سوف خلال هذا العهد إلى عدة عوامل أهمها:

1. المكانة التي يتمتع بها معلم القرآن وهيبته في المجتمع وتقديره واحترامه من طرف الجميع، وخاصة الأولياء.

2. حرص الأولياء الشديد واعتزازهم بحفظ ابنهم للقرآن الكريم فيكون محل افتخار العائلة في شهر رمضان عندما يصلي بالناس صلاة التراويح، ولذلك يتعاون الأب مع المؤدب، ويسأل عن ابنه ولو كان غائبا خارج المنطقة، في أي جزء من القرآن هي سورته.[21]

وعندما يحفظ الطفل القرآن الكريم عن ظهر قلب تقام له وليمة يدعى إليها أصدقاؤه في الكُتّاب، كما يتجول به فوق بغل في أرجاء القرية.[22]

3. إن حفظ القرآن الكريم يجعل الطفل يتعلم القراءة والكتابة، ويوفر له فرصة لمواصلة الدراسة خارج المنطقة، فيرحل إلى جامع الزيتونة المعمور لمواصلة التعليم الثانوي أو العالي.[23]

خامسا: مناهج وطرق التعليم القرآني (المعاصرة):

حدث تطور في حياة المجتمع بعد الاستقلال أثَّر على مختلف النواحي التعليمية، ومنها "التعليم القرآني" الذي خضع لعدة متغيرات على مستوى فئة الطلبة أو الوسائل أو الطرق المتبعة في عملية الحفظ.

أ) خصائص التعليم القرآني المعاصر بوادي سوف:

1) دخول وسائل تعليمية حديثة في الآونة الأخيرة وتمثلت في السبورة والمصحف، تعويضا للوح الخشبي.

2) تكفل بعض الجمعيات بتعليم فئات محددة (مثل فئة الفتيات، والنساء، أو الصبيان والكهول..الخ) حسب برنامج متفق عليه.

3) تحديد عدد الطلبة . خاصة في المدارس الخاصة . والتركيز على النوعية، واصطفاء المتعلمين من بين النجباء الذين لهم قابلية الحفظ، ويتمتعون بإمكانيات عقلية تساعد على التحصيل.

4) الحرص الشديد على متابعة الطلبة ومحاسبتهم على الأجزاء التي تم حفظها، والسهر على توفر الانضباط، واحترام النظام المتفق عليه مسبقا.

5) تحديد مدة زمنية مضبوطة. وخصوصا عند الجمعيات. لحفظ كل القران الكريم، ولا تتجاوز المدة 24 شهراً.

6) توحيد المقدار المخصص للحفظ يوميا (ويتراوح ما بين خروبة وربع حزب)، إضافة إلى توحيد الحفظ في مجوعة متكاملة وقراءة جماعية (بنظام الحلقات أو الصفوف أمام السبورة).

7) الاهتمام الشديد بأحكام ترتيل القرآن، وتوحيد القراءة، واغلبها قراءة ورش عن نافع، مع إجراء دورات في أحكام التجويد في المساجد والجمعيات وخصوصا أثناء العطل.

8) البدء في التحفيظ مباشرة من سورة الفاتحة، مع اختيار التسلسل الذي يتم الاتفاق عليه بالترتيب في المدارس المتخصصة، وحسب الأجزاء في الجماعات الأخرى بالمساجد أو الجمعيات.

9) التخلص من تعليم الأطفال الأبجدية لأن المدرسة الحديثة تكفلت بذلك، ولكن يتم التأكيد على الرسم القرآني الذي يختلف عن الكتابة التعليمية.

10) وتتغير أوقات الدراسة بين الفئات المتعلمة وحسب الظروف الاجتماعية، فالطلبة الذين تفرغوا للحفظ يكون وقتهم طول النهار، بينما يخصص في المساجد بين صلاتي المغرب والعشاء، وعند فئة النساء يتم التفاهم على أوقات أغلبها في المساء.

ب) فئات المتعلمين للقرآن الكريم:

كان التعليم القرآني في العصور السابقة منحصرا في فئة الأطفال (ذكورا)، مع حرمان الفتاة، والمسارعة بتزويجها في وقت مبكر، أو تشغيلها في البيت، فليس لها وقت للتعلم، ولكن تطور الظروف الاجتماعية، وارتفاع المستوى الثقافي أحدث تحولا بارزا، فتعددت الفئات المتعلمة للقرآن الكريم ومنها:

- **فئة الأطفال:** وتضم الفتيان والفتيات منذ السادسة من العمر، ويتم استقبالهم في المساجد والمدارس القرآنية بشكل محدود خلال السنة الدراسية، بينما تستوعبهم جميعا تلك المدارس في العطلة الصيفية بدون استثناء.
- **فئة الشباب:** وهم أصناف، منهم الشباب الذي يتطوع من نفسه لحفظ أجزاء من القرآن، وبعض المتفرغين للحفظ في المدارس القرآنية يكون لهم وقت محدد، وغالبا يدوم سنتين، يتخرج فيها الطالب، أو الطالبة، بحفظ القرآن الكريم بأحكامه، حفظا جيدا، وتقدم له الإجازة من الشيخ الحافظ، التي تمكنه من ممارسة التحفيظ لغيره.
- **فئة الكهول:** يقبل بعض كبار السن من الرجال والنساء على حفظ القرآن على يد المعلم، أو المعلمة، بعدد أقل من الشباب، وقد تخرج من هذه الفئة بعض الحفاظ ،الذين ساهموا في تعليمه لغيرهم، ونشر أحكامه.

ج) طرق حفظ القرآن الحديثة بمجتمع وادي سوف:

- **طريقة الحفظ بواسطة السبورة:**

وهي طريقة يغلب عليها الفعل الجماعي، وتتم بكتابة جزء من القرآن. لا يقل عن خروبة [24] ولا يتجاوز الثمن . وتكون الآيات مشكلة، مع استعمال الألوان في بعض الأحيان والتي تساعد على إبراز أحكام الترتيل.

ويبدأ المعلم بقراءة آية واحدة ويطلب من أحد الطلبة أن يستخرج أحكام الترتيل من تلك الآية، ثم يأمره بقراءتها وأثناء ذلك تصوب الأخطاء،

ويختار طالب آخر، وهكذا دواليك مع بقية الآيات المكتوبة، ثم تدمج مع بعضها في القراءة التي تكون بطريقة جماعية، وبعدد كبير يتجاوز مئة مرة . أي زربة . وتحسب المرات بالسبحة .

وتستعمل في بعض الأحيان . عند التأكد من رسوخ الحفظ . عملية محو الآيات بالترتيب، حتى تصير السبورة فارغة تماما، وحينئذ يستمر الطلبة في القراءة من الذاكرة . ومن ايجابيات هذه الطريقة الروح الجماعية التي تجعل الطالب يتشجع برفاقه، ويتجنب الشرود الذهني، ولكن السلبية الظاهرة هي عدم التحكم في اللحن الذي يقع فيه بعض الأفراد لصعوبة مراقبة كل واحد على انفراد.

❖ **طريقة الحفظ باستعمال المصحف الشريف:**

وهي طريقة يستعمل فيها المصحف العادي في أغلب الأحيان، ومؤخرا بدأ العمل بالمصحف المرتل، وتفتتح القراءة من طرف المعلم الذي يساعد الطلبة على استخراج المواضع التي بها الأحكام الخاصة، وبعد قراءة نموذجية من طرفه يوزع التمارين على عينات من طلبته، ويتم التطبيق فورا وبمسمع الجميع، ويتدخل لتصحيح الأخطاء والتنبيه إلى مخارج الحروف، وتصويب النطق . وبعد الانتهاء من التنبيهات يشرع الطلبة في القراءة الجماعية للجزء المخصص، ويستغرق ذلك كل المدة المخصصة للحفظ، ومن إيجابيات هذه الطريقة التأكد من صحة الآيات وضبطها في المصحف، والتعود على مواضعها في المستقبل عند المراجعة المستمرة، ولكن الظاهرة السلبية . وخصوصا عند الفئات الكبيرة . قلة الوقت المخصص لحصة الحفظ مما يجعل الاستظهار يتخلف لوقت آخر، ولكن الطالب تكون له فرصة ثانية لتثبيت حفظه وإتقانه.

د) نظام المراجعة والتثبيت:

يحتاج الطالب إلى أوقات عديدة للمراجعة والتكرار حتى يحافظ على الجزء الذي تم حفظه، لأن القرآن من خصائصه سهولة الحفظ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:17]؛ ولكنه ينساه إذا لم يتعهد الآيات بالمذاكرة المستمرة، لقول النبي ﷺ: « تعاهدوا هذا القرآن، فو الذي نفس محمد بيده لهُوَ أشد تفلتا من الإبل في عُقُلِهَا » [متفق عليه] . وحرصا على التعهد وضعت عدة

طرق للمراجعة، وفق نظام المدرسة بما يتلاءم مع ظروف الطلبة، وأهم الطرق المشهورة في المنطقة:

- **نظام المراجعة الجماعية**: وتتم في المدرسة تحت إشراف المعلم، فيقسم الطلبة إلى حلقات، تجمع كل حلقة عددا محدودا، ويتولى تسيير العملية أبرز الطلبة حفظا، ويستعين الطلبة بالمصحف والقراءة من الذاكرة، ويكون دور المعلم مراقبة الجميع.
- **نظام المراجعة الفردية**: وتكون في أغلب الأحيان خارج أوقات التعليم، في البيت أو المسجد، بمبادرة من الطالب،أو بإشارة من المعلم الذي يكلف الطالب بتمرين معين، ويتم استعرض ذلك في حصة خاصة بالمراجعة.
- **نظام المراجعة مع المعلم**: وتتم بين الطالب والمعلم باستعراض الجزء المحضر سلفا، ومن ايجابيات هذه الطريقة التأكد من درجة الحفظ، والتنبيه إلى الأخطاء، وتصحيح القراءة وتثبيتها.
- **نظام المراجعة بالتزام الحزب الراتب**: ويكون بعد حفظ القرآن، فيتحتم على بعض الحفاظ الالتزام بجماعة الحزب الراتب في المسجد لأنها تساعده على المراجعة المنظمة الدائمة .[25]

الخاتمة:

إن الدراسة التاريخية للمناهج المختلفة للتعليم القرآني بين عصرين متباعدين تكشف عن عدة حقائق، تجسد آثار التطور في العملية التعليمية، ومن تلك الحقائق الملفتة للنظر:

- تفاني المجتمع في القديم من مختلف فئاته في تعليم أبنائهم القرآن في الدرجة الأولى، ويتم يتعاون المعلم والولي، مع حمل التلميذ على التعلم وأخذه بالشدة، ومتابعته المستمرة بدون انقطاع في مختلف المواسم.
- كثرة الحفاظ للقرآن الكريم قديما بسبب الحرص الشديد من المجتمع. كما سبق الذكر. مما جعل أغلب الأفراد يحفظون القرآن أو أجزاء عديدة، وقلما يتخلف أحد من الذكور على ذلك.
- ارتباط التعليم في العصر الحديث بالمواسم كالعطل، والانقطاع عن تعليمة في بقية الأوقات، بسبب منافسة المدارس الرسمية، ووجود المغريات المختلفة، وتعقد الحياة.

• تفرغ طلبة المدارس الخاصة منذ فترة التسعينات من القرن الماضي، وبداية القرن الحالي، أعادت بعض الاعتبار للتعليم القرآني بشكل ملفت للنظر، وهو يبشر بغد مشرق في المجتمع.

• كان تعليم الفتاة يكاد ينعدم في أغلب الأحيان . في العهد القديم . ولكن التطور الثقافي، وانفتاح المجتمع، وإقبال الفتاة على التعليم الرسمي، رفع الحرج عنها في المدارس القرآنية، فأقبلت على التعلم في المساجد، فضلا عن المدارس القرآنية، وخصوصا بعد تخرجها من الثانوية أو الجامعة، فترى أن القرآن الكريم هو خاتمة حياتها التي تدخل به إلى بيت الزوجية.

وقد أثبتت التجارب القديمة والمناهج التعليمية الحديثة على حد سواء أن التعليم القرآني الناجح، هو الذي يبذل فيه الجهد المتواصل من جميع المهتمين بالقرآن، وهم المعلم والتلميذ والأولياء، ويتعاون المجتمع بأسره، ويصنع المحفزات، ويشجع المعلم، ويوفر كل الظروف والإمكانيات المادية والمعنوية، لأن النتيجة المرجوة لا تقدر بثمن. والعمل التطوعي لا يمكن وحده أن يحقق النتائج الجيدة فلا بد من إردافه بالعمل المنظم الذي يشعر فيه المعلم بالمساعدة والتشجيع من الجميع، وحينئذ يتحقق المطلوب، ويتخرج العدد المعتبر من حفاظ القرآن الكريم.

الهوامش:

(1) عبد الرحمن الجيلالي ـ تاريخ الجزائر العام ـ ديوان المطبوعات الجامعية. ط7. الجزائر. 1994. ج 1. ص140 ، 141.

(2) مبارك بن محمد الميلي ـ تاريخ الجزائر في القديم والحديث ـ تح. محمد الميلي. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر.(ب ت). ج2.ص 37 ، 38.

(3) عثمان سعدي ـ عروبة الجزائر عبر التاريخ ـ المؤسسة الوطنية للكتاب. ط2. الجزائر. 1985.ص 84.

(4) الدباغ ـ معالم الإيمان ـ ج1 . ص 120. ط تونس 1330 هـ. نقلا عن الجيلالي، المرجع السابق. ص 141.

(5) محمد العدواني ـ تاريخ العدواني ـ تح أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي.ط1 بيروت. 1996. ص 111 ، 125.

(6) أحمد البختري ـ الجديد في أدب الجريد ـ الشركة التونسية للتوزيع. تونس. 1973. ص 133.

(7) لقاء مع الشيخ محمود القروي بن محمد بالوادي. يوم الجمعة 2000/08/18.

(8) لقاء مع السيد أحمد خراز بالوادي يوم 16/ 8/ 2003.

(9) لقاء مع السيد رشيد حساني بالوادي يوم 8/9/ 2003.

(10) لقاء مع السيد أحمد خراز بالوادي يوم 16/ 8/ 2003.

(11) مراسلة خاصة تلقيتها من الشيخ حمزة بوكوشة بتاريخ 12 جانفي 1994.ص 03.

(12)J. Scelles Millie -Contes Sahariens Du Souf . Maisonneuvre et larose .1964. paris. p 24

(13) Ahmed nadjah- le Souf de Oasis. Edition la maison des livres. Alger 1971. p108.

(14)Andres Voisin-le Souf monographie d'une région saharienne. Paris1985.(manus)p190

(15) لقاء مع المعلم ـ الصادق اقديري بالوادي في 2 جويلية 2000.

(16)Ahmed Nadjah . op . cit p 109

(17) C. Cauvet – Notes sur le Souf et les Souafa.bulletin de la société de géographie d'Alger 1934. p 111.

(18)إبراهيم العوامر ـ الصروف في تاريخ الصحراء وسوف ـ الدار التونسية للنشر.تونس. 1977. ص 43.

(19)لقاء مع المعلم ـ الصادق اقديري بالوادي في 2 جويلية 2000.

(20)لقاء مع السيد علي حني بالوادي يوم الإربعاء 2004/10/20.

(21) رسالة أبي الضياف بن أحمد إلى المغير 4 جمادى الأولى 1315هـ يخبر فيها أن البشير سورته في الحشر.

(22)Andres Voisin-op cit p190

(23) Ahmed Nadjah . op cit p109

(24) الخروبة :هي نصف ثمن من القرآن.

(25) رصد المسيرة التاريخية للتعليم القرآني منذ منتصف الستينات، عندما كنت طالبا متعلما في المدارس القرآنية في مدينة الوادي، وحتى اليوم كباحث متابع لهذا التطور التاريخي.